الفضاء كمعادل للمكان

من الدراسات المنجزة في موضوع الفضاء الروائي من جعلت الفضاء يعادل الحيز المكاني ، وسمته عادة "بالفضاء الجغرافي" "L'espace géographique "، وأريد به "التضاريس المكانية المحدودة بحدود معينة في النص الأدبي،سواء كانت هذه التضاريس حقيقية أو مجازية(...)،وتتمثل هذه التضاريس في الأمكنة المختلفة الواردة في النص الروائي،والعلاقات بينها هي التي تكون الانتظام في نسق النص"[1].وفيها يتميز المكان الروائي كمكان طبيعي ومكان هندسي، فيتحقق وجوده بالإدراك الحسي، ويخضع للبعد الاعتباري الذي تحدده سلطة القانون الاجتماعي، وهذه العلامات لها دلالة حضارية ملازمة تكشف عن وضع ما في فترة ما،"وهذا المكان الطبيعي يستعين به النص على تصوير العالم الروائي أو على إخراج المنظور الروائي في ذهن المتلقي، وتدخل في الحسبان الروائي أيضا مكونات المكان الأخرى كالأثاث والأشياء والمأكل والمشرب ومقتنيات البيئة والطبيعة، وكل ذلك خاضع للنمط الاجتماعي والحضاري والطبقي الذي ينتمي إليه المكان "[2]، ممثلا في مجموعة من العلامات الجغرافية المنتشرة، فتشير للأماكن المتخيلة التي تدور فيها الحوادث لتحريك خيال المروي له فـ"المكان هو ما عنى حيزا جغرافيا حقيقيا ، والحيز كل فضاء خرافي أو أسطوري ،أو كل ما يند عن المكان المحسوس بالخطوط والأبعاد والأحجام والأثقال

---

[1] – مراد عبد الرحمان مبروك:جيبولتيكا النص الأدبي " تضاريس الفضاء الروائي نموذجا " ،دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر ، الإسكندرية، ط1،2002 ،ص68.

[2] – سليمان حسن: مضمرات النص والخطاب "دراسة في عالم جبرا إبراهيم جبرا الروائي"، منشورات اتحاد كتاب العرب،1999، ص305

والأشياء المجسمة، مثل الأشجار والأنهار، وما يعتور هذه المظاهر الحيزية من حركة أو تغيير."[1].

يتم تعيين الفضاء في السرد الروائي منذ بدايته، فيضيف المكان إلى زمان تلك الحكاية فيتلازمان "وهذه الإشارة الفضائية تضفي على المحكي فور ذلك طابع الحقيقة أو الصدق، فالمحكي لا يكون إلا مموضعا ،أي قائما على الدلالة، على حدث أو على نفيه، فيلزمه إظهاره،وتعد تسمية المكان من ثم أمرا لا مفر منه "[2] .

ولم يعد النظر إلى "الفضاء المكاني" كموضوع وخشبة تعد لجريان الحوادث، فتكتفي بالنظر إليه بمقاربة شكله الواقعي، وتحديد أبعاد تضاريسه، فقد اهتمت السرديات المعاصرة بتشكيل المكان الروائي، وهذا بالنظر في بنيته والكشف عن نظام عملها، والتعرف على المنطق الداخلي المتحكم في إخراجها بهذا الشكل أو ذاك.

إن النظر إلى" الفضاء الروائي" كمكان موضوعي لا يمكن أن يتأسس إلا نصيا، ومن خلال الألفاظ والعبارات ،فالمكان هو الحيز الذي يجلب إليه كل العناصر الفاعلة حتى ينطلق السرد، ولهذا يرى" فليب هامون " "Philippe hamon" أنه " حيث لا توجد أحداث لا توجد أمكنة"[3]، وكما أن السرد بحاجة إلى فواعل للحوادث ، وإلى أزمنة لجريانها، كذلك يحتاج إلى أمكنة لتموضعها "ويكاد تعيين الموضع يرد من السطور الأولى في القصة، بل إنه يرد في الغالب في أول جملة فيها "[4]، وأن البحث في علاقة السرد بالفضاء ضرورة قائمة؛ لأن السارد يشخص عالمه

---

[1]– عبد المالك مرتاض: تحليل الخطاب السردي ، مرجع سابق، ص245

[2]– جيرار جينات وآخرون :الفضاء الروائي، ترجمة عبد الرحيم حزل ، إفريقيا الشرق، المغرب ،2002، ص71.

[3]– المرجع نفسه ،ص6.

[4]– المرجع السابق ،ص71.

الخاص، وهو يصف الأمكنة والمساكن والساحات والطرقات، فيستحضرها خياله للمسرود له،الذي يقوم بدوره بإحيائها فتتشكل العلاقات التي تربط العناصر ببعضها البعض في سياق الكلام".[1] ،وبهذا يقوم بإحيائها وكأنه يراها، أو يمر بها أو يعيش فيها،و يتطلب هذا من المسرود له أن يدرك العمل الروائي في محوره العمودي، ضمن تنظيم العلاقات "تلك العلاقات التي تقوم بين التوقعات، و الإسترجاعات، و الاستباقات، والعلاقات التناظرية ، والعلاقات التي تقوم بين المنظورات "[2] .

أبدأ هذه المقاربة أولا "بالفضاء الجغرافي"، وأريد به الفضاء الذي تجري فيه الحوادث، ويشتمل على فضاء المركز، وهو الأمكنة الحية التي تتحرك عليها الشخصية، فتتولد الحوادث، وتعاني فيها الشخصيات أو تعاني منها، وتتفاعل فيها ومعها. إنه "الزمكان" الذي يعتبر المكان وجهه الظاهر ويرتبط أساسا بحاضر السرد ، بالإضافة إلى الفضاءات الذاكرية، وأعني بها تلك الفضاءات الأخرى غير الداخلة في "الفضاء المركز" (الموضوعي)، وتتمثل خاصة في استرجاعات لأمكنة خارج فضاء الحكاية، أو تتعلق بأمكنة استشرافية قوامها عالم الأحلام، و التي تستدعي أماكن الرغبة والتطلعات. ويقتضي ذلك النظر إلى جغرافية الفضاء كإطار موضوعي يحتضن الحوادث التي تصدر عن فعل الشخصية وتفاعلها مع الفضاء والأشياء.

ولهذا فإن تناول الفضاء يتجاوز فكرة الإشارة إليه كمكان جغرافي فقط، بل يهدف إلى تقديم صورة واقعية أو مستعارة عن الخارج فدراسته"ترتبط ارتباطا وثيقا بالآثار التشخيصية "[3] يفرض المنهج تفتيت الأبنية للانطلاق مما هو جزئي للقبض على ما هو كلي لنصل إلى طبيعة مكون الفضاء الروائي، أي تمظهر المكان في الروايات ونظام عمله ،فالفضاء الجغرافي هو الذي يمكن القارئ

---

[1] – خوله طالب الإبراهيمي :مبادئ في اللسانيات ،دار القصبة للنشر ،الجزائر 2000،ص25

[2]– جيرار جينات وآخرون ، الفضاء الروائي ، مرجع سابق، ص15.

[3] – المرجع السابق ،ص20.

من التخيل والتعرف الموضوعي على الأماكن فيدرس في البداية مستقلا عن المضمون مثل ما يفعل المختصون عند مسحهم للفضاء الحضري،وكما يرى" هنري ميتيران" H.mitterand " فإن "هؤلاء لا يهمهم من سيسكن هذه البنايات ومن سيسير في هذه الطرق ،ولا ما سيحدث فيها ، ولكن يهمهم فقط أن يدرسوا بنية الفضاء الخالص"[1] ، ولهذا سأبحث فضاء الموضوع الروائي بالنظر إلى الفضاء كمعادل للمكان وكمايلي:

1- فضاء الأمكنة الحية:

1-1- الفضاء الحضري:

تتخذ رواية "**المرفوضون**" مدينة فرنسية لا يصرح السارد باسمها، فيبرز الفضاء فيها مفتقدا للنور في النهار، بسبب الضباب الذي اعتاد اجتياح كل مكان فيها، فحياة أحمد المغترب فيها " كذلك الضباب الكثيف الكئيب الذي غرق فيه شارع" لوفيك" "[2] .

أما ليلا فيبدو فضاء المدينة-وقد أضاءه النور-.خاليا من البهجة يفتقد إلى حرارة الدفء والتواصل، فهذا أحمد يتجول في المدينة فيجد الجو صحوا وأعمدة الإنارة تنير الشوارع شبه الخالية،وبالرغم من المسرة التي داعبت جنباتها فترة من الزمن،وبثت الحياة في فضائها أثناء الاحتفال"بالكرنفال"، سرعان ما تعود إلى سكونها وانطوائها عقب ذلك الابتهاج فـ"كانت الشوارع شبه مقفرة بعدما ظلت طوال النهار غارقة في فوضى الكرنفال،وقد انتشر في هذه الشوارع التي لاح وكأن الأضواء

---

[1] – نقلا عن :حميد لحمداني: بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي،مرجع سابق ،ص54.

[2] -إبراهيم سعدي :المرفوضون (رواية)،الشركة الوطنية للنشر والتوزيع،الجزائر،ط1981، ص 97.

المسلطة عليها ليس لها من غاية سوى إنارة كآبتها وعيائها انتشر فيها النثار والأصباغ والزخارف التي خلفتها الحفلة بعد انصرامها"[1].

و في "الجزائر"، تبدو مدينة العاصمة نهارا مدينة كبيرة ممتدة مترامية الأطراف تغطي سفوحها الأشجار ويحتضنها البحر،وليلا لمن يراها عن بعد "مدينة كبيرة تتلألأ بالأضواء "[2]،ويرى الموهوب المتجول في إرجائها " طرقاتها خالية صامتة قذرة خاوية من الأشجار ومن المارة (...) عماراتها مغلقة، نوافذها محشوة بالبشر قبيحة المنظر "[3].

وتبرز المدينة كفضاء للعيش والتنقل وممارسة نشاط الحياة اليومية، كما أصبحت فضاء للا أمن، فقرر الراوي مغادرتها إلى مدينة "بومرداس"،ففي شوارع تلك المدينة كان يترقب الاعتداء في أي لحظة، ومن أي مصدر،يقول:"كنت أراقب ملامح وحركات كل إنسان أبصره يسير باتجاهي، وأغير الرصيف عندما أحس بأحد يمشي خلفي أو أبطئ الخطو حتى أجعل نفسي خلفه "[4].

تبدو المدينة على الساعة السابعة صباحا خالية من كل مظهر حياة، بسبب حالة الطوارئ وسوء الأوضاع الأمنية، فترتب عن ذلك تراكم القمامة واختفاء الناس من الشوارع والساحات، وإغلاق المحلات فـ" تبدو مهجورة، المحلات مغلقة، الأرصفة خالية، سكون مريب يخيم على المكان ، كلب

---

(1)- المصدر السابق ،ص 190.في العبارة تفكك والصواب "وقد انتشر في هذه الشوارع النثار والأصباغ والزخارف..."

(2)- إبراهيم سعدي: النخر(رواية)، المؤسسة الوطنية للكتاب،الجزائر،1990، ص 106

(3) – المصدر نفسه ،ص 238

(4) – إبراهيم سعدي: فتاوي زمن الموت (رواية)،منشورات التبيين الجاحظية سلسلة الايداع الفني ،الجزائر، 1999، ص 123

أعرج يدب على الرصيف، قط يتسلق جبلا من القمامات، هذا كل ما يتحرك من الأحياء حاجز أمني على الطريق" [1].

أما أرجاؤها فلا تسمع فيها إلا صدى طلقات الرصاص المدوية من مختلف العيارات ومن أماكن مختلفة البعد فـ" الرصاص في الخارج لا يتوقف (...) تصبح الطلقات متفرقة ومتباعدة، ثم يسود الصمت مختلف أرجاء المدينة"[2].

و يبدو أن المدينة في الجنوب الجزائري تعيش على هامش الحياة، لا شيء فيها يلفت النظر أو يبهج النفس، كل ما فيها يوحي بالموت والفراغ، لأنها بباسطة خارج حدود الزمن، ورغم هذا فهي فضاء لجوء وهروب الشخصية من القتل والإرهاب السائد في الشمال .

يقدمها السارد بمنازل واطئة، وطرقات عارية، فتبدو نهارا لشدة الحر مدينة مهجورة بـ" ضوء غامر وحرارة ملتهبة وغبار متطاير "[3] .

في الهجير تكون شوارع المدينة فارغة من كل أثر للحياة،فلا مخلوق على الطريق ،أما ليلا فينتشر فيها الظلام، ويسودها الصمت فلا يسمع فيها "المهدي" إلا "نباح الكلاب القادم من قلب المدينة الغارقة في العتمة"[4] .

1-1-1- <u>الأحياء:</u>

يقدم السرد حي "لوفيك"، وهو حي يقيم فيه عادة عمال مغتربون من البرتغاليين والأتراك والجزائريين، الذين قهرتهم ظروف الحاجة في بلدانهم، فوفدوا إلى فرنسا للعمل.يظهر الحي بمنازله

---

(1) . إبراهيم سعدي :بوح الرجل القادم من الظلام،(رواية)، منشورات الإختلاف ، الجزائر 2002 ،ص79.

(2) . المصدر نفسه ،ص114.

(3) - إبراهيم سعدي :بحثا عن أمال الغبريني(رواية)، منشورات إتحاد الكتاب الجزائريين ، الجزائر 2003،ص126.

(4) - المصدر نفسه ،ص126 .

الواطئة فلا يزيد علو عماراته على ثلاثة طوابق تظهر نهارا بألوان داكنة ، أما في الليل فالحي مظلم ومخيف،فعندما اصطحب أحمد المومس كاترين لحيه عبرت له عن انطباعها فقالت: " هذا المكان لا يسكنه سوى الفئران والمجرمين* الذين قضوا أكثر من خمسين سنة في السجن فجاءوا إلى هنا ليعيشوا أيامهم الباقية "[1].

أما الفرنسيون فيسكنون عادة أحياء فخمة في شوارع راقية كشارع "لا فكتوار" "الذي بنيت على جانبيه تلك العمارات الشاهقة الفخمة "[2]، وفي الغالب يتجنب هؤلاء الانتقال إلى الأحياء التي يسكنها العمال العرب المهاجرون بل إنهم "يستاءون أشد الاستياء حينما يقطنون بالقرب منهم، ويعتبرون ذلك دليلا مؤلما على مدى انخفاض مستوى معيشتهم"[3].

و في رواية" **النخر**" تظهر تضاريس الفضاء الروائي لحي "موهوب"، و هو عمارات شيّدت منذ العهد الاستعماري، تفصل العمارات عن الحي القديم ساحة اتخذها أطفال الحيين للعب،وتتربع تلك العمارات على مرتفع،ويخترق الحي القديم طريق يؤدي إلى المدينة الكبيرة،وغير بعيد عنها مقلب قمامة تفوح منه روائح مقرفة، وعلى جانبي الطريق الرئيس للحي القديم انتصبت منازل متفاوتة الارتفاع، يعمها الظلام ليلا، ويعبق هواؤها بشذى الياسمين الممتزج بالروائح الكريهة. تبدو عمارات الحي القديم بسلالمها اللولبية وبشرفاتها ونوافذها وقد نشر عليها الغسيل، وفي الحي محلات ومقاه ودكاكين، ومنازل راقية من طابق واحد تحيط بها أسوار، انتصبت وراءها أشجار البرتقال والكروم والياسمين.

---

(1) . إبراهيم سعدي: المرفوضون(رواية)،مصدر سابق ،ص 120.* الصواب: المجرمون.

(2) – المصدر نفسه ،ص97.

(3)– المصدر نفسه ،ص 29،30.

ويتكون الحي الذي يسكنه "الزبير" (الابن الأكبر لباية)،من عمارات شيّدت من أربعة طوابق، وصبغت بلون أحمر باهت، وطرقات الحي غير معبدة ، وهو يخلو من الأشجار، ويفتقد للدكاكين ويعج بالأوساخ، والذباب، والخنافس، والصراصير، والجرذان الضخمة، التي ترهب جانبها القطط المتشردة، كما تفوح منه الروائح الكريهة المنبعثة من قنوات الصرف الصحي المحطمة، وشرفات شقق الحي مكتظة بالغسيل المعروض للتجفيف على أشعة الشمس الحارقة[1] .

ولا يختلف الحي في رواية "**فتاوى زمن الموت**"عنه كثيرا، بتضاريسه التي وردت متناثرة في المتن الروائي فيرد ذكره دون تسميته ،إنه مكان للنشاط التجاري ومقر للسكن أيضا، ولقد كان في واقع الأمر حيا أوربيا رحل عنه ساكنوه بعد الاستقلال ، فنزح إليه الأهالي من الحي القصديري يقول الراوي: " الكثير من سكان حينا آنذاك كانوا قد جاؤوا من الحي القصديري المجاور على أثر الرحيل الجماعي للأوربيين بعد الاستقلال أو قبله بقليل "[2]، و على مكان مرتفع مقابل للحي توجد المدرسة فلا يفصلها عنه إلا الطريق، فمن هناك يستطيع الناظر متابعة ما يجري في الحي، وهناك المكان المعزول بتضاريسه الوعرة، وبعده عن الحي ،"لقد كان المكان معزولا واقعا في سفح منحدر يحاذي الطريق المؤدي إلى مدينة "حسين داي" ، مكان خال من الناس بعيد عن الأنظار مغطى بأشجار "الكاليتوس" وممتلئ بالفضلات "[3] ،و يخترق الحي طريق مرصوف يؤدي إلى المقهى، وهناك أيضا طريق الجبانة الذي تواتر الناس على تسميته

---

[1] – ينظر :إبراهيم سعدي:النخر(رواية)،مصدر سابق،ص 274،275.

[2] – إبراهيم سعدي: فتاوي زمن الموت (رواية)، مصدر سابق،ص 5.

[3] – المصدر نفسه، ص 15.

بذلك؛ لأنه كان محاذيا للمقبرة ويتميز "ببعده عن الأحياء السكنية وخلوه من المارة، وقلة مرور السيارات فيه "[1].

وتبرز الأحياء في رواية "**بحثا عن أمال الغبريني**"فتسلط الضوء على الحي الذي يسكنه موح شريف، و هو حي عتيق في مدينة الجنوب ، يتكون من منازل عتيقة واطئة متراصة توصل إليها مسالك ضيقة ، كثيرة المنعرجات كأنه متاهة حقيقية، لتشابه منازله العتيقة والمتلاصقة .

أما "حي الأنذال"، وهو اسم يطلق عادة على الأفارقة المهاجرين غير الشرعيين، الذين يسكنون الحي ويمارسون فيه كل الأنشطة المحرمة والممنوعة، والحي صغير بناياته متنافرة واطئة لا تزال ورشات بناء "بعضها شيد بالقصدير و بعضها بالطوب وبعضها بهذا وذاك "[2].وطرقاته مغبرة تغزوها الأوساخ، لا أثر فيه للخضرة،"لم تدخله بعد الكهرباء ،لأنه لا صحن برا بول يعلو سطحا ولا أنتين تلفزيون، حي جديد لكنه لا يبشر بخير، غارق في الغبار، تنتشر فيه الأوساخ، لا شجرة واحدة تنبت فيه"[3].

ويقدم السرد الروائي الفضاء الحي" لمدينة عين"... ففي المدينة أزقة قديمة ضيقة لا يتسنى للسيارات دخولها، وقد كتبت على جدرانها شعارات الحزب المنحل ، أما الإعلانات الداعية للتبليغ عن الإرهابيين فقد مزق الكثير منها ولم يبق منها إلا القليل،"جل النداءات المعلقة في الأحياء الشعبية نزعت (...) هنا في هذه الطرقات الضيقة الملتوية بمنازلها البائسة لا يجرؤ رجال الأمن أنفسهم على المجيء" [4].

---

(1) – المصدر السابق،ص 48.

(2) – إبراهيم سعدي : بحتا عن أمال الغبريني(رواية) ، مصدر سابق ،ص 214.

(3) – المصدر نفسه ، ص 130

(4)– إبراهيم سعدي:بوح الرجل القادم من الظلام (رواية) ،مصدر سابق،ص72

1-1-1-2-البيوت و الغرف:

تبرز البيوت في رواية "**المرفوضون** "كمكان لسكن المغتربين، ففي عمارة قديمة بالطابق الثالث من شارع "لوفيك"، تقع الغرفة التي يسكنها أحمد، وهي فضاء خاص للإقامة والطهو والأكل والنوم، يقدمها السرد لنا صغيرة ضيقة رديئة متهرئة الأثاث،في الغرفة طاولة صغيرة وكرسي وحيد وخزانة فارغة مكسورة الباب، وسرير مشوش الفراش، و مذياع صغير متهالك، وعلى الجدار قطعة من مرآة مكسورة ومغسل بصنبور، وعلى الجدار أيضا صورة باهتة مغبرة تآكلت حواشيها لفتاة عارية. على باب الخزانة المخلوع يعلق أحمد سترته و ملفعه، وفوق الطاولة ثلاثة رؤوس بصل وزجاجة جعة فارغة، وصحن صغير مملوء برماد وأعقاب السّجائر، وتحت السرير علبة ورق مقوى فيها بطاطس، وتحت المغسل صندوق قمامة، وفي الغرفة أيضا موقد غاز صغير للطهو ومقلاة ، [1].

في العمارة ذاتها،وفي الطابق الأول يوجد بيت "ماري"، وهي عجوز فرنسية وأرملة جندي فرنسي قتل في حرب التحرير الجزائرية.هذا البيت يختلف في محتواه ورحابته عن غرفة "أحمد"،فمدخل البيت يفضي مباشرة إلى قاعة الأكل، و فيها مائدة مستديرة، عليها زجاجة خمرة وكأسان فارغتان، وعلى الجدار المقابل لباب الخروج علق إطار فيه صورة زوجها "برنار". وهناك نافذة بكلة بيضاء شفافة ومدفأة،ومقابل قاعة الأكل غرفة نوم "ماري" وفيها خزانة وسرير يسع شخصين، وطاولة صغيرة عليها قنديل سهر خافت الضوء [2] .

---

(1) – ينظر: إبراهيم سعدي : المرفوضون،(رواية)،مصدر سابق، ص 16،17،18 ،92،101،173.

(2) – ينظر:المصدر نفسه ،ص 38،44،55،140.

وتشير رواية "**النخر**" لبيت عائلة "باية" الموجود بالطابق الثاني في عمارة، يفضي للشقة سلّم مظلم ليلا لانكسار مصابيحه، على حيطانه خربشات مختلفة وكثيرة، وجل صناديق البريد مخلوعة أبوابها.

لباب الشقة صرير حاد، ويتكون البيت من ثلاث غرف، وقاعة جلوس، ومطبخ، ودورة مياه. للبيت شرفة عادة ما ينشر فيها الغسيل. عند الدخول تجد قاعة الجلوس، وفيها " مائدة مستديرة واطئة"[1] ، توضع عادة بها في النهار، ثم توضع " لصق الحائط المقابل للشرفة، وهو مكانها الليلي "[2] ، وفوقها توضع الكراسي. يفصل حيز من القاعة بستار سميك أخضر ليلا حيث تنام "علجية".

وغرفة نوم "دحمان" و"فاطمة" توجد مقابلة للباب الخارجي، لها نافذة تطل على الشارع والساحة وهي مجاورة لغرفة "موهوب "،وبابها مقابل لقاعة الجلوس . في الغرفة سرير كبير وأسرة كثيرة متزاحمة، ومذياع صغيرعلى السرير ودولاب وحيد محفور في الجدار. و تفوح الغرفة برائحة البول، وعلى الجدار صورة لشيخ هزيل فقير يضم قيثارة. [3]

وهناك غرفة نوم "موهوب" التي توجد مقابلة للباب الخارجي، وهي مجاورة لغرفة "دحمان" وبابها مقابل لقاعة الجلوس ، لها نافذة تطل على الشارع والساحة. كان في الغرفة بقية أثار إخوته حينما كانوا يشاركونه الغرفة ، وحينما عزمت "الأم باية" على تزويج "موهوب" تغير مشهد الغرفة استعدادا لهذا الحدث البهيج ، فبدت بمظهر أنيق فـ " الجدران مطلية بدهن جديد،خالية من الصور الكثيرة

---

[1] – إبراهيم سعدي: النخر (رواية) ، مصدر سابق ، ص 8.

[2] – المصدر نفسه ،ص 9.

[3] – ينظر: المصدر نفسه، ص 80، 203.

التي ألصقها إخوته أيام كانوا يقاسمونه غرفته ، صارت تعبق الآن بعطور زكية وأثاثها جديد كله ."[1].

ولا يتأخر السرد في تقديم مؤثثات غرفة نوم "موهوب" غداة زواجه من "شريفة"، فبالإضافة لطاولة عمل وكرسي يوجد فيها أيضا" خزانة كبيرة وسرير فخم بطاولتين صغيرتين وضعتا على جانبي الوسادة ، يوجد على واحدة منها قنديل السهر ،قبالته منضدة التجميل اصطفت على رفها قارورات الطيب"[2].

وفي البيت أيضا غرفة الأم "باية" . وهي ربة البيت . على مدخلها ستار ابيض طويل، وآخر على نافذتها، وفي وسطها سرير يحتل نصفها، وفي الغرفة أغراض أخرى جعلتها تضيق بها إنها غرفة" مظلمة ضيقة يشغل السرير ذو الرجل الناقصة المعوضة بآجرتين موضوعتين الواحدة على الأخرى حيزا واسعا، والباقي من المكان،يحوي مدفأة غازية وآلة خياطة عاطلتين عن العمل ،مع خزانة قديمة،ومذياع بحجم التلفزيون، بالإضافة إلى دربكة ضخمة (...) صناديق موضوع بعضها فوق بعض مع مهد موحش ذي العجلات وما تبقى عبارة عن ممر يتخلل الأشياء هذه ."[3] ، وفي خزانة "باية" أغراض زوجها المرحوم "حمو" ، حافظت عليها فـ" أحذية المرحوم "حمو"، سراويله وقمصانه مرتبة بعناية داخل الخزانة العتيقة "[4].

لا يستمر ذلك الترتيب في الغرفة، فما أن تغادر الأم "باية" غرفتها لبيت ولدها "الزبير"، يحل ولدها "دحمان" بالمكان،فتنتشر الأوساخ و اللانظام فهناك ترى" سراويل "دحمان" ملقاة على آلة الخياطة

---

(1) – المصدر السابق،ص 24.

(2) – المصدر نفسه،ص203

(3) –المصدر نفسه، ص 171.

(4)– المصدر نفسه ،ص 175.

في حاجة إلى تنظيف، و أقمصة معلقة على مقبض النافذة (...) وغبارا يتناثر في كل مكان، وقشور برتقال وبطيخ، وعلب سردين فارغة، وذبابا كثيرا وحشرات"[1].

ولا تكاد تظهر البيوت في" **فتاوى زمن الموت**" بسماتها المفصلة، بل يتم التعرض لها كفضاءات لسير الحوادث، من غير الاهتمام بملامحها ومكوناتها ومؤثثاتها أو مرافقها، فينهمك السرد في الحوادث ويشير إليها إشارات عابرة، وهاهو الراوي "موح" قد هرب من حيه ومن بيته خوفا على نفسه من الاغتيال إلى "بومرداس" فيقول: "غيرت باب بيتي الخشبي فجعلت له بابا معدنيا ودعمته بأربعة أقفال"[2].

وفي رواية "**بحثا عن أمال الغبريني**" تُظهر البيوت طبيعة الفضاء الذي بنيت فيه، فالبيت الذي يقيم فيه "موح شريف" ،لا يختلف عن البيوت المتلاصقة به، فواجهتها جميعا تخلو من النوافذ، فهذا "موح شريف" يصطحب "مهدي" و"خضراوي" لبيته فـ" توقفوا أمام مدخل بيت لا يُرى منه سوى جدار طويل بلا نوافذ، مشترك مع المنازل الأخرى "[3]. للبيت باب قديم يكشف عن قدم الحي والبيت معا . عند انفتاح بابه تجد باحة واسعة بعض الشيء، تفصل الشقة عن الباب العتيق. وقبالة باب المدخل وبعد الفناء هناك غرفة الضيوف، وهي قاعة صغيرة فيها مائدة مربعة ،و مكتبة زينت بطقم فخار فـ " أخرج موح شريف من على أحد رفوف المكتبة المقابلة صحنا صغيرا مصنوعا من الفخار،وهو جزء من طقم موضوع هناك للديكور "[4].

---

(1) – المصدر السابق،ص 280.

(2) –إبراهيم سعدي : فتاوي زمن الموت(رواية)، مصدر سابق، ص 124.

(3) – إبراهيم سعدي :بحثا عن أمال الغبريني (رواية)،مصدر سابق ،ص 141.

(4) – المصدر نفسه ،ص 143.

وإلى منزل "ممادو" في حي "الأنذال"، انتقل "المهدي" للوقوف على أخبار "الأستاذ خضراوي" من المهرب الإفريقي "ممادو"، فكان لا بد له من الاتصال به في بيته،والبيت لا يختلف في قليل أو كثير عن بيوت الحي الأخرى، ويتواجد بابه عند" المنحدر الترابي الصغير الضيق "[1]، وهو في الواقع كوخ معروش بالزنك، و به مكانان متقابلان ومنفصلان بدهليز أحدهما بباب والأخر بعازل من الباش [2] .

في وسط البيت أثاث بسيط –للاستعمال اليومي– وهو كرسيان واطئان بلا مسند حول طاولة مستديرة وقصيرة بدورها ومن وراء ستار الباش " كانت تأتي (...) أغنية افريقية غاية في الحزن "[3] ،ووراء ستار الباش تقيم الفتاة الإفريقية "ليليان" وهناك رأى "المهدي" " فراشا مبسوطا على الأرض و"شان ستيريو" قريبة منها، كانت لا تزال الأغنية تنبعث من داخلها"[4].

وبعد أن اجتاحت البلاد موجة العنف والإرهاب الشمال الجزائري في بداية الفتنة، بدل الناس أبواب منازلهم الخشبية بأخرى حديدية كثيرة الأقفال لسوء الوضع الأمني وانتشار الاغتيالات والمجازر والاختطافات يقول "الحاج منصور" لابنته "زكية" حينما زار شقتها:" الناس لهم بيوت من حديد وخائفون، وأنتم لازلتم تستعملون بابا من خشب"[5]

---

(1) – المصدر السابق ،ص 216.

(2)– ينظر: المصدر نفسه ،ص 216.

(3) – المصدر نفسه ،ص 216.

(4)– المصدر نفسه ،ص 222.

(5) – إبراهيم سعدي :بوح الرجل القادم من الظلام (رواية)،مصدر سابق، ص 120.

وهذا بيت والدها "الدكتور الحاج منصور نعمان" يقع في المدينة نفسها، مدينة "عين..." التي استقّر بها، للبيت فناء واسع، وقاعة مكتب ومطبخ وغرفة نوم، و له "باب حديدي كبير ثقيل"[1] يسمح بدخول السيارة إلى الفناء.

وفي المدينة ذاتها، و بمكان مقفر بعيد يعيش الصوفي "سعيد الحفناوي" في عزلة عن الناس في قبته البيضاء .وهي شكل مدور أبيض اللون في امتداد أفق القفار، في بقعة قاسية محجرة، و لا يرى المرء "حيثما ولى بصره غير امتدادات صامتة موحشة ساكنة تغطيها نتوءات حجرية تشبه أسنانا حادة لا تنمو فيها حتى نبتة بائسة"[2]. للقبة باب خشبي قديم أرضها فرشت بحصير جلس عليه الصوفي "سعيد الحفناوي" مقابلا للباب، وعلى شماله نسخة قديمة من القرآن الكريم وعلى يمينه قبعة من قش عتيقة، وفي زاوية الجدار القريبة منها عصاه[3] .

1-1-1-3- الفنادق:

تضطر الشخصية للعيش في الفنادق، ففي الجنوب الجزائري هناك "فندق الجنوب"، وهو مكان سكن وإقامة، إنه أكبر فندق في قلب الصحراء في مدينة من الجنوب الجزائري. يقف الوافد "مصطفى نوري" بعد نزوله من سيارة الأجرة التي قادته إلى النزل، فيتأمل مدخل الفندق بعد أن " وقف لحظات طويلة يتأمل أكبر مبنى رآه منذ وصوله، نعم إنه هو، فكر وهو يقرأ فندق الجنوب مكتوبا على المحل "[4] .

---

(1) – المصدر السابق، ص 82.

(2) – المصدر نفسه،ص 314.

(3) – ينظر: المصدر نفسه ،ص 323.

(4) – إبراهيم سعدي: بحثا عن أمال الغبريني(رواية)، مصدر سابق، ص 17.

في بهو الفندق تصادفك في يمينه مصلحة الاستقبال، فتقدم لنا من وجهة نظر شخصية الأستاذ "خضراوي" الحال فيه فـ " التفت إلى يمينه فرأى شابا أنيقا واقفا خلف مكتب الاستقبال. "[1] ومقابل مصلحة الاستقبال وضعت أريكة لجلوس الزبائن، وزين الجدار فوقها بمنظر طبيعي لجبال الطاسيلي و" راح الغريب يجلس على المقعد الجلدي المقابل الذي كان يعلوه منظر جبال الطاسيلي الرابضة في قلب الصحراء كبقايا عالم منقرض " [2] . وأمام الأريكة مائدة طويلة واطئة عليها منفضة زجاجية " رأى المومس تظهر في المكان وتجلس على الأريكة المقابلة قدام المائدة الطويلة والواطئة التي راحت تنفض في منفضتها الزجاجية رماد سيجارتها"[3].

في بهو الفندق مقصورة هاتف، وفي الفندق مطعم ومقهى يرتادهما النزلاء الصمت السائد في فندق الجنوب في الفترة التي رصدها السرد جعلت الفضاء ملاذا للفراغ فلا جلبة ولا ضوضاء كالمعتاد. ونهار المكان يخلو من النشاط ومن الصخب لندرة مرتاديه في " ذلك الصباح الصامت الخاوي الشديد القيظ الذي لا يختلف في شيء عن غيره " [4].فالطابق الأول لا يقيم فيه غير المهدي الهارب من التهديد بالقتل في الشمال وها هو يفاجأ حينما " سمع وقع خطوات وراءه تدق الرواق. الطابق لا يقيم فيه عادة غيره؛ وفي بعض المرات يستقبل سائحين من شمال الوطن أو أوروبيين . لكن ذلك نادرا. أو مومسات، وأحيانا أشخاصا مشبوهين مهربين، وحتى مجرمين يقيم الجميع لمدة ليلة أو ليلتين، ثم يتركون المكان. لكن عادة هو فارغ "[5] .

---

(1) – المصدر السابق،ص 17.

(2) – المصدر نفسه ،ص18.

(3) – المصدر نفسه، ص.211

(4) – المصدر نفسه ،ص 189.

(5) – المصدر نفسه ،ص 5 .

في النزل غرفة المهدي و تقع في الطابق الأول، في الغرفة ثلاجة ومكتب وسرير ومائدة من بلاستيك و كرسي، فهاهي مكوناتها تتمظهر عند تحرك شخصية المهدي ف" حال الغريب ذكره بزجاجة النبيذ التي أودعها ثلاجته،والنتيجةأنه ترك المكتب قاصدا إياها (...)كان لا يزال يشرب حينما وقع بصره على رواية ملقاة على مائدة مستديرة واطئة مصنوعة من البلاستيك "[1].

وغرفة "المهدي" و"خضراوي" (الغريب) متجاورتان لا يفصلهما غير جدار، في كل غرفة ثلاجة وتلفزيون وسرير وطاولة كبيرة مجاورة له ، و"في حوالي الساعة الثامنة أخرج علب الياغورت وزجاجة الحليب من الثلاجة ووضعها على الطاولة الكبيرة المجاورة للسرير(...) أما التلفزيون فلم ينتبه لوجوده"[2].

وفي رواية" **بوح الرجل القادم من الظلام**" يتطرق السرد إلى "نزل المسافرين" في مدينة "عين..." وهو نزل يقع في الشارع الرئيس يوصل إليه سلم ضيق، و يقصده عادة كل من حل بالمدينة لأول مرة، ولقد اكتشفه "الدكتور منصور" حينما نزل بالمدينة وحل فيه يقول: "بصري وقع على واجهة كتب عليها نزل المسافرين (...) عبر ذلك الدرج الضيق لمبنى رمادي اللون المتألف من طابقين(...) صعدت الدرج انتهى بي إلى نضد، لم أجد به أحدا، اللوحة المثبتة على الجدار كانت مثقلة بالمفاتيح [3]". ويفتقد النزل لأبسط شروط الإقامة؛ ولذلك لا يقصده أحد، فالغرفة التي حل بها وكغيرها من غرف الفندق لا تتوفر على أدنى شروط الراحة يقول :"لاشيء في المقصورة (...)

---

(1) – المصدر السابق، ص 40.

(2) – المصدر نفسه ،ص 21.

(2)– إبراهيم سعدي : بوح الرجل القادم من الظلام (رواية) مصدر سابق ، ص 242،243.

فهي خالية من كل ما من شأنه أن يجعلني أحس بالراحة.سقفها واطئ، ونافذتها لا تنفتح ومرحاضها لا أراك الله"[1]

1-1-1-4-الشوارع والساحات:

ينتقل "أحمد" في رواية "**المرفوضون**" يوميا للعمل في مصنع الجعة الذي يقع خارج المدينة، يخرج من غرفته لينزل بالسلم من الطابق الثالث فيجتاز مدخل مبنى العمارة نحو الشارع، تبدو الرؤية محدودة بسبب ذلك" الضباب الكثيف الكثيب الذي غرق فيه شارع " "لوفيك" "[2] أرضية رصيفه مرصوفة بحجارة قديمة، في الشارع "كنيسة سان مارتان" العتيقة، يبدو الشارع خاليا من الناس كل يوم أحد" [3] .يمر "أحمد" في حركته اليومية "بساحة كليبار" التي تنفتح على شارع" فرون بورجوا " ،وفيها انتصبت " السيارات والطائرات والأحصنة الصبيانية التي كانت تدور في الساحة بالأطفال الصغار الذين كانوا يلوحون بأيديهم بسعادة غامرة "[4].

وشارع "لافكتوار" يعد من أهم شوارع المدينة، به حي راق على امتداد" جانبيه صفان من العمارات الشاهقة والفخمة " [5] . تضيء طريق الشارع الصاعد أنوار أعمدة كهربائية، و تنتقل شخصية "أحمد" لشارع "فرون بورجوا"، ويوجد هذا الشارع في قلب المدينة، فينفتح على ساحة "كليبار" وعلى جانبه محل للألبسة يدعى "مغازة بريزونيك"، وعلى الجانب المقابل مقهى "اللوبيت"، وفي هذا

---

[1] – المصدرالسابق ،ص243

[2] – إبراهيم سعدي ، المرفوضون(رواية)، مصدر سابق ،ص 97.

[3] – ينظر: المصدرنفسه، ص 97،135،173

[4]– المصدر نفسه ، ص6

[5] – المصدر نفسه ،ص 15.

الشارع تنتصب المكتبة الكبيرة، وقرب المقهى محطة السكك الحديدية، وغير بعيد عنها موقف الحافلات، وفي محطة سكة الحديد قاعة للسينما [1].

أما شارع المدينة في رواية "**النخر**" فيبدو هادئا، تسوده الحركة والنشاط نهارا، وتقل به ليلا. والشارع الكبير يفضي إلى السوق، ومنه تتفرغ طرقات المدينة القديمة الضيقة الملتوية، وفي ذلك الحي الجامع والحمام القديم، ومحل الحلاقة بكراسيه الخشبية العتيقة.

تبدو الطرقات نهارا مكتظة بالسيارات والباعة والمارة، وهذا "موهوب" يتجول ليلا في "طرقات خالية صامتة قذرة خاوية من الأشجار ومن المارة، وسط عمارات مغلقة نوافذها محشوة بالبشر قبيحة المنظر"[2].

وفي النهار تنتقل "فاطمة "زوج "دحمان" من بيتها، فتقف أمام واجهات المحلات في شارع ضخم غاص بالناس،وهاهي تتجول في السوق وتنعم بالحياة "حركة السيارات، ازدحام البشر ،أصوات، رائحة الشواء بائعو الحلويات والكرنتيطا والحمص والساعات الالكترونية والسجائر والنفة، قاذورات وفضلات هنا وهناك"[3] .

وفي رواية" **فتاوى زمن الموت**" يتقدم المكان القريب من الطريق كامتداد للحي يتميز بعزلته وبتضاريسه الوعرة " لقد كان المكان معزولا، واقعا في سفح منحدر يحاذي الطريق المؤدي لمدينة حسين داي، مكان خال من الناس بعيد عن الأنظار ، ومغطى بأشجار الكاليتوس وممتلئ بالفضلات "[4] .و يعتبر طريق الجبانة . وهي تسمية أطلقها الراوي وأصدقاؤه عليه لأنه يمر بقرب

---

(1)– ينظر:المصدر السابق ، ص 3،7

(2) – إبراهيم سعدي : النخر(رواية)،مصدر سابق، ص 238.

(3) – المصدرنفسه،ص 244.

(4) – إبراهيم سعدي : فتاوى زمن الموت(رواية) ،مصدر سابق ،ص 15

مقبرة في الطريق . مكانا معزولا"لبعده عن الأحياء السكنية وخلوه من المارة وقلة مرور السيارات فيه "[1] .

ومن الأمكنة التي انتقل إليها الراوي "موح" أيضا، فضاء البريد المركزي حيث التقى "خوخة" فسلمته وديعة أسرارها بعدما رافقها لزيارة قبر أخيها "ياسين" يقول: " كنا واقفين آنذاك على غير مبعدة من دائرة البريد المركزي "[2] . كما كانت شوارع العاصمة فضاءات مفتوحة حاول فيها الراوي " موح" البحث عن "خوخة" بعد أن سلمته مذكراتها يقول: "وإلى ذلك الحين لم أكن قد توقفت عن البحث عنها كنت أراها في كل مكان(...) ،كنت أذهب إلى العاصمة يوميا وأنتقل من شارع لآخر، لكن لم ألتق بها ولا مرة ، ولعلي لم اترك في تلك الأيام أي فندق دون أن أسأل عنها لكن بدون جدوى"[3].

يقدم لنا السرد في رواية" **بحثا عن آمال الغبريني**" صورة شوارع "حي الأنذال"، فهو أزقة ضيقة عبارة عن متاهة تخلو من أي لوحة أو إشارة أو كتابة مرشدة، فلولا الدليل لما اهتدى "المهدي" لمقصده فـ" وسط طرقات ضيقة قصيرة متشعبة خالية من أية لوحة أشارية من أية كتابة ، فكر أنه ما كان بالفعل ليستطيع الاهتداء إلى "ممادو" بمفرده"[4] .

وتتعرض شوارع المدينة أحيانا للزوابع الرملية مما يجعل الرؤية عويصة والتنقل غير ممكن،فهذا "وناس خضراوي" و"المهدي" يتواجدان بالفضاء عندها و"ما أن خرجا حتى انقضت عليهما رياح

---

[1] – المصدر السابق ،ص 48.

[2] – المصدر نفسه ،ص 106 ،107.

[3] – المصدر نفسه،ص 113.

[4] – إبراهيم سعدي :بحثا عن أمال الغبريني (رواية)، مصدر سابق ،ص.214

عاتية مشحونة بالغبار جعلت المدينة تبدو كما لو أن ضبابا كثيفا سقط عليها وجعلها عمياء بسبب سوء الرؤية"[1]

و فضاء الشارع في رواية "**بوح الرجل القادم من الظلام**" يعمه دوي الانفجارات ،ينتقل "الدكتور منصور" من بيته ،فيتقدم بسيارته نحوها ،وهناك رأى سيارات الإطفاء والإسعاف في المكان وقد أطلقت أبواقها،الدخان يعم مكان الانفجار، والازدحام يمنع المنقذين والمتطلعين من التقدم ؛عندها رأى جثثا ودماء وأشلاء وسط خضر وفواكه مسحوقة يقول:"أرى الناس يجرون في كل الاتجاهات أسمع أبواق سيارات الإسعاف والمطافئ ألاحظ الدخان وهو يعلو في السماء.(...)،جثث متفحمة أجسام ممزقة أطراف لحم بشرية .دم صراخ دخان نار(...)وجوه مذعورة رجل يتخبط على الأرض وسط حبات طماطم مسحوقة و مبعثرة"[2]

1-1-1-5-المقاهي والمطاعم:

يتمظهر الفضاء في رواية "**المرفوضون**" دائما باختراق شخصية "أحمد" لمقهى "اللوبيت" وهو مقهى صغير بسيط قرب محطة سكة الحديد يقصده العمال العرب من كبار السن يقدم لهم القهوة والروم فيه طاولات صغيرة ومنضدة الشرب له واجهة زجاجية تشف عن طريق كئيب يفضي لمحطة سكة الحديد، دهن المقهى وطاولاته بطلاء أسود لامع [3]

في بداية شارع "كي دي بيشوار" المحاذي لنهر تعلوه جسور لا يبعد كثيرا بعضها عن بعض، هناك "مقهى داود" ،وهو مقهى تُقدم فيه جميع المشروبات بلا استثناء، للمقهى واجهة زجاجية تطل على النهر، ويبدو من اسم هذا المقهى انه كان ليهودي ابتاعه منه أحد الجزائريين، فصار العمال

---

[1]- المصدر السابق ،ص 94.

[2] - إبراهيم سعدي: بوح الرجل القادم من الظلام (رواية)،مصدر سابق ،ص31

[3] - ينظر: المرفوضون (رواية)،مصدر سابق، ص 29،30.

المغاربيون والأفارقة والشبان الفرنسويّون اليساريون يرتادونه، ويشربون القهوة، ويعاقرون الخمر، ويأكلون لحم المرقاز على إيقاع موسيقى الغناء الشرقي،وفي هذا المكان كغيره طاولات وكراسي ومنضدة للشرب، ويشرف على الخدمة فيه نادل [1].

وأما مقاهي "مدينة الجنوب" فلا أثر فيها للبهجة والنظافة والجمال، ونستشف هذا من رؤية المهدي المرتاد لها ،وهاهو يسلط الضوء على إحدى تلك المقاهي صباحا فـ " في ذلك الصباح قصد أول مقهى صادفه، جلس إلى طاولة معدنية مستديرة تقشر طلاؤها الأزرق الباهت في أكثر من موضع وبدأ ينهشها الصدأ، واقعة في عمق المقهى في الزاوية اليمنى ،رغم أن عدد الزبائن كان قليلا كالعادة ، والنادل غير مشغول بشيء تركه ينتظر ،لا يوجد شيء مستعجل في هذه المدينة"[2].

و"مقهى المنفيين" المسمى عادة "بمقهى الاستراحة" في مدينة "عين..." يقع على رصيف الطريق الرئيس للمدينة، و فيها يجتمع الغرباء،وهم عادة من الموظفين المغضوب عليهم الذين أرسلوا إلى تلك المدينة تأديبا، وهناك في وسط شارع التحرير أيضا يقع المطعم، و يشغل قاعة ضيقة له طاولات و سقف واطئ علقت عليه مروحة.[3]

1-1-1-6- المستشفيات:

بعد تعرض "الراوي موح" لمحاولة اغتيال يجد نفسه في مستشفى بمدينة "بومرداس" ففي إحدى قاعاته المصطفة أسّرتها والممتلئة بالمرضى يقول: " كنت ملفوفا بضمادات واحدة حول الرأس والأخرى حول الظهر والذراع اليسرى، والثالثة حول أسفل الصدر، وهي المواطن التي أصابتني فيها الطلقات النارية (...)،في القاعة التي كنت أعالج فيها، كان الجرحى يغادرون المكان بمجرد

---

[1] – ينظر: المصدر السابق،ص 165 166.

[2] – إبراهيم سعدي: بحثا عن أمال الغبريني(رواية) ، مصدر سابق ، ص 90،91.

[3])- ينظر: إبراهيم سعدي : بوح الرجل القادم من الظلام (رواية) ، مصدر سابق ، ص 246،248

تماثلهم للشفاء نظرا لنقص الأسّرة، لكن البعض منهم* كان لا يغادر القاعة فقط بل العالم أيضا "[1] .

وفي رواية" **بحثا عن آمال الغبريني**" زار "المهدي" المستشفى للاطمئنان على صحة "خضراوي" المريض فرآه منتصف النهار، بأروقته الخالية في يوم صيفي حار، يسود المكان حر شديد ويغزوه الذباب، وكان المرض ينخر الأجساد ويحصد الأرواح في" ذلك المكان التعيس، قاعة انتظار الموت" [2] .

وفي رواية" **بوح الرجل القادم من الظلام** "يبرز المستشفى فضاء ينتشر فيه الذعر بسبب نقل ضحايا الانفجار لمصلحة الاستعجالات، فالمصابون بأجسامهم العارية الدامية متروكون على ارض الرواق و على النقالات ويعم المكان الأنين والعويل يقول "الدكتور منصور":"أرى المصابين بأجسامهم المشوهة والدامية متروكين في الرواق(...) تتناهى إلي موجة من الأنين والعويل والصراخ، من الواضح أن المستشفى تجاوزته الأحداث".[3].

1-1-1-7- المساجد:

وفي رواية "**فتاوى زمن الموت**"، وبسبب موجة التدين صارالجامع لايسع مرتاديه وأصبح الناس يؤدون صلاة الجمعة في الطريق " حتى أن المئات من الناس كانوا يصلون خارج المسجد وسط الطريق يستمعون إلى الإمام عبر مكبر الصوت "[4]،كما صار المسجد محلا للريبة والخوف وقد كان مكانا للتقوى والورع والمحبة،ففي رواية "**بوح الرجل القادم من الظلام**"يدخل "الدكتور الحاج

---

(1)- إبراهيم سعدي : فتاوى زمن الموت(رواية) ،مصدر سابق ، ص 130،131.* والصواب لكن بعضهم...

(2)- إبراهيم سعدي: بحثا عن أمال الغبريني(رواية) ، مصدر سابق ،ص 257

(3)- إبراهيم سعدي :بوح الرجل القادم من الظلام (رواية)، مصدر سابق ،ص32

(4)- إبراهيم سعدي :فتاوى زمن الموت (رواية)،مصدر سابق ، ص 47.

منصور نعمان" "جامع السنة العتيق"، وقد لاحظ على مدخله ملصقات تدعو للتبليغ عن الإرهابيين يقول:"أجلس في مكاني المعتاد بالمسجد، مسندا ظهري إلى أحد الأعمدة،غير بعيد عن المحراب(...)الحاضرون موزعون هنا وهناك،بعضهم قد أحني رأسه على المصحف،يقرأ في صمت متأرجحا بظهره ،والبعض الأخر* جالس بلا حركة،بلا كلمة وبلا نظرة،عدد الحاضرين قليل بالقياس إلى الأيام السابقة على الفتنة،معظمهم من الشيوخ مثلي، والبقية رجال أمن متنكرون أو عيون إرهابيين غير معروفين"[1].

1- 2 -فضاء الريف :

يمتد السرد الروائي في رواية "**المرفوضون**" لفضاء الريف، فيأخذ مساره الطبيعي ويفتح نافذة يطل من خلالها على امتدادات تصل آفاقا متقطعة، فيربط هنا بهناك، وأظن هذا يمثل ميزة كبرى في أعمال "إبراهيم سعدي"، مما يوفر لها عنصر التشويق،فالعمال العرب و"الحَرْكة"[2] أيضا الذين أخلصوا لفرنسا وتنكروا لقومهم ومبادئهم وقيمهم ودينهم لم يحرزوا على رضا فرنسا والفرنسيين، فهم مرفوضون يعيشون مبعدين في أحياء ريفية معزولة بناياتها واطئة متشابهة فـ "كانت تلك البنايات الواقعة خارج المدينة مسكونة خصوصا من طرف عمال المغرب العربي ومن عدد كبير من الحركة الذين بنيت في الواقع خصيصا لهم في سنة 1963 بعد فرارهم من الجزائر "[3].

وفي الريف الجزائري تبرز لنا رواية "**النخر**" قرية "تمديلت" وتبعد عن العاصمة ما يقارب أربع ساعات سفرا بالقطار، وللوصول إليها لابد من المشي مدة ثلاثة كيلومترات، مدة ساعة تقريبا عبر

---

[1]- إبراهيم سعدي:بوح الرجل القادم من الظلام(رواية)، مصدر سابق، ص55 *الصواب وبعضهم جالس...

[2] - الحركة جزائريون تجندوا في الجيش الفرنسي إبان إحتلاله للجزائر وحملوا السلاح ضد أبناء وطنهم وتنكروا لدينهم وقومهم وربطوا مصيرهم بمصير المستعمر،فرحلوا عن الجزائر إثر استقلالها.

[3] - إبراهيم سعدي:المرفوضون(رواية)، مصدر سابق، ص، 146.

طريق غير معبد ، وطرقها الفرعية لا تصلح لمرور الشاحنات والسيارات وتبدو ضيقة وقصيرة يملؤها الحصى والغبار، وعلى ربوة ترى"الدشرة" عند نهر جاف وهناك مقبرة القرية بها شجرة بلوط ،وفي القرية جامع للصلاة وخارجها ترى شجرة زيتون منفردة، بالقرب منها نبع ماء بارد ومنزل منعزل مهجور، وتحيط بها الغابات الشاسعة والثقب الأسود الضخم في المرتفع المسمى "غار الشياطين"، وهناك أراضي "مزرعة الإخوة شبوب" الشاسعة، وتفتقر القرية للبث التلفزيوني ويطمح أهلها لإكمال بناء المدرسة، وفتح طريق معبد، ترى فيها العجائز وهن يحملن على ظهورهن جرارا ممتلئة ماء وأكداسا من الحطب. [1].

1-2-1- فضاء السكن والإقامة:

في قرية" تمديلت" بيت "بوعلام" وزوجه "شابحة" ،وأيضا بيت عائلة "باية" القديم،أما بيت "بوعلام" و"شابحة" فيفضي إليه طريق صاعد ملتو محجر يخترق الغابة. الباب الثاني هو باب الدار، فناء أرضها مبلط بالإسمنت في الساحة شجرتا تين شد بينها حبل لنشر الغسيل. للمنزل مطبخ فتح بابه على فناء الدار وكانونه داكن من النار والدخان، وهناك غرفة نوم كانت في السابق "لعلجية" ،أما الآن فهي لعبد النور ولد "بوعلام" و"شابحة". للغرفة نافذة صغيرة تطل على فناء الدار، وفيها فراش يحتل ما يربو نصف مساحتها، وبابها مفتوح أيضا على ساحة الدار ومؤثثات البيت جد بسيطة، منها مائدة مستديرة واطئة. البيت بلا كهرباء أو ماء؛ ولذلك يستضيء أهله بمصباح غاز، ويجلبون الماء بالجرار من منبع القرية [2].

---

[1] – ينظر : إبراهيم سعدي :النخر(رواية)، مصدر سابق ، ص 128،129،139.

[2] – ينظر :المصدر السابق ، ص 129،135،139،140،141،142،143،144

أما بيت عائلة "باية" القديم،فيظهر فضاء مهجورا خربا منعزلا على مقربة من عين ماء باردة، وقد حاصرته النباتات، وعند حافة سطح سقفه نبتت شجرتا تين فوق باب مدخله المتهرئ، وبالقرب منه روث حيوانات، وحطام قرميد السقف، وقارورة جعة فيها تراب ونمل[1].

1-2-2-فضاء التنقل:

في رواية" **المرفوضون** " يتنقل أحمد كل يوم للعمل في مصنع الجعة، ويظهر لنا خارج المدينة الفرنسية فضاء بائسا حالكا فهناك " حقول واسعة خيم عليها ظلام دامس"[2] .

وفي رواية "**فتاوى زمن الموت**" يتقدم فضاء الريف بخضرته وهدوئه. يحاول الراوي ترك مكان سكنه؛لأنه لم يعد يشعر بالأمن فيقرر التنقل إلى "بجاية" التي لاتبعد عن قريته "تكامرا"ويسلك طريقا وسط الغابة "في الطريق الرابط بين يكوران وأدكار،المار وسط غابات الزان،والخالي تقريبا من حركة المرور " [3].

في رواية "**بحثا عن أمال الغبريني** " ينتقل المهدي و ورفاقه إلى الصحراء، و هناك يرون واحة على قارعة طريق قاحل بنخيل بائس وسط امتداد مجهول لا محدود ولا مفر فيه من الضياع "وسط ذلك الامتداد الساكن العاري البعيد عن العالم "[4] ،وفي الواحة يوجد ما يمكن تسميته بمقهى ومطعم،يتعرف "المهدي" ورفيقاه على المكان فيرون أناسا، جالسين قرب أو حول " جذوع أشجار نخيل شاحبة، وشيئا غامضا له أربعة جدران ومدخل " [5].

---

(1) – ينظر : المصدر نفسه ، ص 129،130

(2) – إبراهيم سعدي: المرفوضون(رواية)، مصدر سابق ،ص 97.

(3) – إبراهيم سعدي:فتاوى زمن الموت(رواية)، مصدر سابق،ص126

(4) – إبراهيم سعدي:بحثا عن أمال الغبريني(رواية) ،مصدر سابق،ص171.

(5) – المصدر السابق،ص175

يتعرف المهدي على ما في داخل ذلك المكان الوحيد الخالي من النوافذ فأرضيته قذرة و يرزح عليه البؤس، وفيه أفارقة نازحون مقهورون بالجوع والمرض،وفارون من المجازر الجائحة لبلدانهم، "وجد حوالي أربعين شخصا متهالكين على مقاعد طويلة وآخرين جالسين أرضا".[1]

ويقرر المهدي في النهاية مغادرة مدينة الجنوب إلى الشمال فيتوجه صوب المطار فالطريق إليه يخلو أيضا من الخضرة، عدا بعض الأشجار القليلة المنتشرة في ذلك الوسط المقفر،"في ذلك الفضاء اللامحدود الباعث على اليأس،الخالي من الحياة الذي كانت تعلوه، هنا وهناك بعض النباتات البائسة".[2]

أما خارج مدينة "عين..." فيظهر مقفرا أيضا في امتدادات يسودها الصمت والوحشة فلا ترى غير أماكن جرداء قاسية يهيمن عليها الصمت"تلك الأماكن الجرداء الغارقة في سكون مطبق، وفي صمت لا حدود له، وسط تلك القفار"[3].

2- الفضاء الذاكري:

تمثل الأمكنة الذاكرية تلك الفضاءات المسترجعة التي تشكل نبعا إضافيا بالفضاءات الأخرى المرتبطة بالأمكنة الحية في الموضوع الروائي،وتلقى بظلالها عليه؛ ولأن الرواية تحكي حوادث تجري في فضاء يتم فيه الانتقال وفق مبدأ السببية،والتعاقب المنطقي في امتداد خطي، إلا أن النص الروائي الحديث قل ما يعرف السير المنطقي للحوادث،فيقدم ويؤخر،ويتلاعب بلذة القارئ وكما ذكرت ، فإن الزمن غير مدرك ماديا إلا من خلال الذاكرة التي تتمسك عادة بمواقع وأثار مادية، فاسترجاعها يتطلب حكاية ثانية تمثل فضاء ذاكريا ينطلق من الحكاية الأولى الأصلية التي

---

(1)- المصدر نفسه،ص177

(2)- إبراهيم سعدي: بحثا عن آمال الغبريني(رواية)، مصدر سابق ،ص267

(3)- إبراهيم سعدي: بوح الرجل القادم الظلام (رواية) ،مصدر سابق، ص314

هي فضاء الحاضر وهي تابعة لها،وتسمح بالاطلاع على فضاءات جرت فيها الحوادث،ولم يتطرق لها السرد في حاضره و"توظف عادة قصد تزويد القارئ بمعلومات تكميلية تساعده على فهم ما جرى ويجري " [1].

2-1- الفضاء الحضري:

سأتحدث في البداية عن الفضاء الذاكري في الحواضر،ففي رواية"**المرفوضون**" في المهجر الفرنسي يعبر "أحمد" فضاء شارع"فران بورجوا"، فيرى المكتبة التي عمل فيها ولاقى كل أنواع القهر والميز العنصري،فلم يتمالك أن يلقي نظرة عليها وأن يسترجع ذكرياته في"تلك المكتبة الكبيرة الموجودة في ذلك الشارع (...) في فترة من الزمن اشتغل فيها وكان صاحبها يناديه باسم "ماكس(...) كان عمله يتمثل في نقل أكياس مملوءة بالكتب من مكان إلى آخر في المكتبة، وفي بعض الأحيان بتسليمها إلى المدارس التي تكون قد اشترتها "[2].

في رواية "**بوح الرجل القادم من الظلام**" يسترجع "الدكتور الحاج منصور نعمان" فضاء مدينة الجزائر ليلا حينما كان يتجول في طرقات "لاكلاسير" الترابية،-بعدما فقد أسرته- ويقدمها عديمة الإنارة صامتة موحشة خالية يسودها الصمت وتنتشر بها الأوساخ يقول:" لا أرى أثرا لأي كائن حي ، منازلها المتشابكة والمتداخلة إلى ما لا نهاية موصدة الأبواب والنوافذ قبور، قبور في طرقاتها غير المعبدة الصاعدة والنازلة الملتوية والمستقيمة الضيقة والعريضة أسير، لا أقوى على شيء إلا الهروب من نفسي"[3].

---

[4] - عبد العالي بو طيب:مستويات دراسة النص الروائي ،مقاربة نظرية ، مطبعة الأمنية ،الرباط، ط1، 1999 ،ص155 .

([2])-إبراهيم سعدي:المرفوضون(رواية)، مصدر سابق، ص11

[3]- إبراهيم سعدي: بوح الرجل القادم من الظلام(رواية) ،مصدر سابق، ص 178

والعاصمة تبدو له ليلا فضاء كريها تنتشر فيه القاذورات، وتعج طرقاتها بالكلاب الضالة والبشر المشردين، فها هو منصور يصفها بعد أن قضى ليلة متشردا يقول: " في طرقات العاصمة الموحشة الخالية الصامتة القذرة المغلقة المحلات والأبواب والنوافذ (...) المطفأة الأنوار المظلمة السماء طرقات ما كنت أرى فيها عادة سوى الجرذان والكلاب الضالة الضامرة والمجانين والمتشردين مثلي "[1] . أما الروائح المنبعثة من طرقاتها فكريهة لا تطاق ممثلة في " رائحة البول والقيء والعفونة"[2].

لا يختلف فضاء مدينة "عين..." في كثير عن" مدينة الجنوب"،و يسترجع "الدكتور منصور" صورة المدينة حينما حل فيها أول مرة، فتبدو له بمنازلها الواطئة،و حرارتها الشديدة مع قلة أشجارها وشح مائها إنها كما قال عنها:" مدينة المنفيين والمغضوب عليهم مدينة لا شيء فيها ، غير حرارة تنافس بها نيران جهنم مدينة لا ضرع فيها ولا زرع ، منسية واقعة خارج الزمن خارج الحياة ، (...)، هنا في هذه المدينة الواطئة الصامتة، ذات المنازل المتلاصقة، ذات اللون الأسمر الباهت العارية والخالية من الأشجار سوف أقضي بقية حياتي "[3].

في المدينة هناك الطريق الرئيس المسمى بشارع التحرير، وعلى مقربة منه فندق المسافرين ومقهى" المنفيين"، وعلى امتداد الطريق رصيف مسقوف تحمل سقفه أقواس متقاربة ممتدة يفضي إلى بنك، ثم إلى مركز بريد، يتذكر الدكتور منصور تلك الفضاءات حينما حل بالمدينة فيقول:"رحت أمشي مبتعدا عن المقهى سائرا على طول رصيف مغطى تحده أقواس متلاصقة، الرصيف انتهى بي في المرة الأولى عند مصرف،ثم عند مركز بريد، لم أدرك آنذاك أنني كنت أسير في الطريق الرئيسي

([1])– المصدر نفسه ،ص 211.

([2]) – المصدر نفسه ،ص 213.

([3])– المصدر نفسه، ص 240، 241

"لعين..." أي في شارع التحرير"[1] ،أما الحي فمعزول عن المدينة وعن مرافقها ولا يمكن لأي غريب أن يلجه إلا بمرافق من أهلها، وها هو "الدكتور منصور" يكتشف هذه الحقيقة حينما كان يتجول في جنبات المدينة لأول مرة يقول :"واصلت السير في نفس الشارع إلى أن عرجت على يميني خائضا في ممر ضيق، أفضى بي إلى ساحة محاطة من كل الجهات تقريبا بمحلات مغلقة (...)، عند نهاية الممر(...) قطعت الساحة، رجل لا ادري من أين خرج ظهر أمامي حين هممت بالخوض في زقاق ضيق صالح للمشي على القدمين فقط (...)، لم تفهمني يمنع دخول المدينة القديمة على الغرباء."[2]،وخلف المدينة كما رآها لأول مرة امتدادات صخرية في محيط قاحل يقول: " يصعب على المرء وهو لا يرى حينما ولى بصره غير امتدادات صامتة موحشة ساكنة تغطيها نتوءات صخرية تشبه أسنانا حادة وعملاقة لا تنمو فيها حتى نبتة بائسة "[3]ويستمر السارد فيصور لنا فضاء مدينة "عين..." قبل حوادث أكتوبر أين عانى شباب المدينة حالة من التذمر والسخط والفراغ، فكان عناؤهم في تزايد دائم دون أن يتمكن أحد من تلبية أبسط متطلبات حياتهم اليومية. هذا الوضع دفعهم إلى التمسك بالمثل الدينية علها تخفف آلامهم فتزرع فيهم الأمل بعد اليأس، وتملأ قلوبهم بالسكينة بعد الخوف، لقد "صاروا يتكاثرون كالجرذان كانوا أكثر عددا، المساجد والطرقات و الأماكن العمومية صارت غاصة بهم حيثما التفت المرء لا يرى تقريبا غير شبان باقمصة بيضاء، ولحى سوداء، وشاشيات بيضاء "[4]

---

[1]– المصدر السابق ،ص 246

[2] – المصدر نفسه ، ص 247

[3]– المصدر نفسه،ص 314

[4]– المصدر السابق، ص268.

وفضاء مدينة "عين ..."كما استحضره "الدكتور الحاج منصور نعمان" في حوادث أكتوبر فضاء مضطرب، تسوده فوضى الشباب الغاضب الناقم على وضعه المزري، مما دفعه إلى التمرد بسد الطرقات وحرق السيارات ونهب المحلات، وها هو "الدكتور الحاج منصور نعمان" يصف ما جرى حينذاك فيقول: " سيارات متفحمة وأخرى محطمة، محلات مهشمة ومفرغة ، عجلات مطاطية محترقة شظايا الزجاج وعلب ممزقة ونفايات أخرى مترامية على جوانب الطريق وسط ذلك متظاهرون يرمون قوات الأمن بالحجارة، عناصر الأمن يردون عليهم بغازات مسّيلة للدموع" [1] ،وهاهي المدينة بعد حوادث أكتوبر تقع تحت أسر حظر التجول القسري، نتيجة الاشتباك المسلح بين قوات الأمن والإرهابيين فيصورها "الحاج منصور' عند خروجه من مركز الأمن الذي كان قد استدعي إليه فيقول: " لا أرى أثرا لكائن حي، تبدو المدينة كما لو أن السكان قد تركوها عن بكرة أبيهم "[2].

2-1-1-فضاء التنقل:

يشير "الدكتور الحاج منصور نعمان" في مذكراته حينما حل بمدينة "عين..."إلى وجوده بمقهى من مقاهيها، ولم يكن بعد قد اكتشف أسراره يقول:"في ذلك المساء لم أكتشف أنني كنت موجودا في مقهى المنفيين،عدا تلك النظرات المريبة لا شيء كان يثير فيه الانتباه ،مقهى كأي مقهى آخر واقع على رصيف الطريق الرئيسي للمدينة، أي الأقرب من فندق المسافرين" [3].

ويسترجع "الحاج منصور نعمان" حادثة تفجير مقهى المنفيين كلما مر بالمكان الذي كان عادة يجلس فيه مع رفاق له في الغربة والمعاناة، يقول: "أكف عن السير وأتأمل أنقاض المقهى لا تزال

---

[1] المصدر نفسه ، ص 291

[2]- المصدر نفسه ،ص 152.

[3]- المصدر السابق ، ص 246

حجارتها المتفحمة متراكمة على بعضها البعض، أسمع الانفجار في ذهني، أسمع الصراخ والأنين أرى الدم والجثث، وبقايا بعضها مسحوبة من تحت الحجارة والخراب،أجل قتلوا كلهم إلا أنا"[1].

وتسترجع ذاكرة "الدكتور منصور" أول يوم من إقامته بمدينة "عين..." دخوله مطعما في يوم شديد الحرارة كثير البعوض فيصوره قائلا: "في إحدى الزوايا اتخذت لنفسي مكانا جالسا إلى طاولة مربعة كنت الزبون الوحيد رغم المروحية المثبتة إلى سقفه الواطئ،أحسست بحرارة لم أعرفها في يوم من الأيام، القاعة بدت لي ضيقة أكثر من اللازم، أحسست بنفسي أختنق، الناموس لم يفتأ يغير علي"[2].

2-1-2-الأحياء والبيوت:

تفتح ذاكرة "الدكتور الحاج منصور نعمان" في رواية"**بوح الرجل القادم من الظلام**" على حيه القديم، وهو حي عديم الاسم "حارة كثيرة البيوت المتراكمة المتشابكة توصل إليها ممرات وأدراج ملتوية كثيرة معقدة وضيقة "[3] . ومن عادة سكانه ألا يغلقوا الأبواب بالمفتاح نهارا،وأما حي رفيقه "صالح الغمري" فيدعى "حي النخيل" البشع بطرقاته المقطوع بعضها عن بعض بسبب تراكم القاذورات واختلاطها بمياه قنوات الصرف المتصدعة، وبسبب عماراته ذات الأربع طوابق وذات اللون الباهت الغريب، والنوافذ المحملة بالغسيل "[4].

وبيت "منصور نعمان" القديم بيت صغير وبائس، يقع في الطابق العلوي في حارة فوضوية يفضي إليه سلم ضيق مظلم حتى في النهار، و يتكون من مطبخ وغرفتين صغيرتين بائستين ضيقتين

---

[1] – المصدر نفسه ، ص 253.

[2] – المصدر نفسه،ص 249.

[3] – المصدر نفسه، ص 27.

[4] – المصدر السابق ص 14.

موحشتين، يوجد باب الدار مقابل المطبخ، فبعد الباب تجد الرواق، هناك غرفة نوم والدي "منصور" وبجوارها غرفته، وهناك المطبخ. لقد صار البيت يخلو من كل مظهر حياة ويصف "منصور" بيت عائلته بعد رجوعه من فرنسا إثر إبلاغه بنبأ قتل أبيه لأمه فيقول: "قرب المدخل وسط العتمة صعدت إلى الدرج المؤدي إلى بيتنا(...) لم أزل أصعد الدرج الضيق والمظلم حتى في النهار(...)وأنا واقف أمام بابنا القديم الذي تحول إلى باب الرعب (...) دخلت. لا صوت. لا جلبة. ظلام. صمت مطبق أشعلت الضوء أول ما رأيت فأرا في الرواق. المكان مملوء بالغبار (...) تقدمت نحو غرفة نوم أبي وأمي لم أجد شيئا لا سرير لا خزانة لا شيء أخر عدا براز جرذان (...)، غرفتي المجاورة لقيتها بدورها فارغة (...) في المطبخ وقفت على الخنافس منتشرة في كل مكان لا سيما على رف المغسل"[1].

وتسترجع ذاكرة "منصور"فضاء بيت السيدة "كلير ريدمان" ،ويدعى "فيلا روز" تقع في مدينة" كيوفيل" (عين بنيان) ،على طريق غير معبد محاذ للبحر وهناك مساكن فردية مغلقة النوافذ مطلة على البحر، تبدو خالية من السكان "الفيلا" فارغة غارقة في صمت مطبق، وهناك قاعة جلوس واسعة وضعت فيها أرائك جلدية،في وسط القاعة مائدة مستطيلة وطويلة، تحيط بها كراسي عديدة للقاعة نافذة وبعدها فناء يسمح برؤية البحر الممتد إلى ما لا نهاية، حيث هناك أمواج صاخبة ترتطم بالصخور،وفي القاعة لوحة للرسام" إتيان دينيه" تصور نساء "نايليات" موشمات الوجوه بثياب تقليدية مزركشة، وقد تزينّ بالحلي الفضية مقابل الجدار الذي علّقت عليه لوحة "دينيه"، هناك "البوفي" الخشبي بأبوابه المنحوتة بأشكال زخرفيه جميلة.

---

[1] – ينظر: المصدر نفسه ، ص،173،174

وغرفة نوم "مدام كلير ريدمان" مرتبة في أحسن ما يكون الترتيب، فيها سرير واسع، و خزانة ممتلئة على آخرها بملابسها، وهناك أيضا الغرفة المقابلة لغرفة نومها، وفيها مكتبة بكامل كتبها[1].

ويستمر "منصور" في معاينة محتويات البيت، فيقول: "المطبخ على حاله نظيف منظم بكامل أوانيه وعدته لا ينقصه شيء ، الصحاف في مكانها نظيفة مرتبة بجانب المغسل (...) الدولاب الذي سمحت لنفسي بفتحه هو كذلك، ألفيت فيه الكثير من الأشياء (...) الثلاجة أيضا ممتلئة باللحم والجبن والزبدة وبحبات البيض وبزجاجات البيرة والخمر وبالماء البارد"[2] .

2-2-الفضاء الريفي:

في رواية"**المرفوضون**"تشير رسائل "جان" الجندي الفرنسي لزوجته "ماري" خلال حرب التحرير إلى التدمير الذي ألحقه الجيش الفرنسي بالإنسان وفضائه في قرى بمنطقة "أكفادو" في شمال الجزائر،من تدمير فيصور لها آنذاك ما كانوا يقومون به من أعمال مثلا يقول:" يوم أمس وقعنا على قرويين، من النساء والأطفال والشيوخ بالقرب من غابة كثيفة، أحرقت القنابل جزءا كبيرا منها، كان هؤلاء القرويون قد تركوا قريتهم لأنه كان من المقرر أن تدمرها الطائرات" [3].

كما تقدم لنا تلك الرسائل صور حية للفضاء بقراه المنتشرة على مرتفعات محجرة جرداء في أرض قاحلة، قد انتثرت عليها أشجار الزيتون يقول:" في إحدى القرى الرابضة على مرتفع تحرقه الشمس،

---

(1)- ينظر: المصدر السابق، ص 45،46،67.

(2) - المصدر نفسه ، ص68.

(3)- إبراهيم سعدي : المرفوضون(رواية) ، مصدر سابق ،ص 45،46.

وجوه الناس هناك تشبه أرضهم القاحلة المليئة بالأحجار، وعيونهم عبارة عن حبات زيتون مقتطفة من تلك الأشجار، وموزعة هنا وهناك"[1].

و لا يتأنى السرد في فتح نافذة عبر ذاكرة "أحمد" في رواية" **المرفوضون**" حينما زار قريته "أدكار"، فيسترجع جانبا من فضاء الريف الجزائري وما يحيط به، فيتذكر عودته أول مرة إلى قريته، فتنهض فضاء مرتفعا شاسعة آفاقه بلا حد، فيعجز البصر عن الإحاطة بما يغمره من ضوء وما يسوده من حر فـ" يبلغ "أحمد" المرتفع الذي تقع البلدة تحته (...) يلتفت وراءه من علو ذلك المرتفع، فيرى مرتفعات نائية تتخللها سبل ضيقة ملتوية طويلة تؤدي إلى جبال شاهقة تحتضن قرى معزولة لا تكاد ترى"[2].

كما استرجع أحمد في غربته ذكرى عودته الأولى لقريته "أدكار" لغرض الزواج فسلط الضوء على كل جانب فيها، منذ أن وطئت قدماه أرضها على الساعة الواحدة في فصل الصيف .

تقع تلك القرية على مرتفع طرقاتها تبدو خالية، يمتد طريقها الرئيس إلى ساحة سوق الجمعة ثم يتفرع عنه طريق آخر وعر صاعد، حيث هناك ثكنة سابقة بجدران معدنية صفراء اتخذها الأهالي مساكن، وعلقوا ملابسهم المغسولة على نوافذها، وعند المرتفع صفت منازل لأبناء وأرامل شهداء، في أعلى المرتفع مرتفعات أخرى أعلى بعيدة تخترقها مسالك طويلة ملتوية لتصل جبالا شاهقة عليها قرى بعيدة معزولة، وعند انحدار الطريق ثم استواؤها غابة كثيفة واسعة فيها قرية، وعند

([1])- المصدر نفسه، ص 47.

([2])- المصدر نفسه ، ص 176.

انحدار الطريق مرة أخرى تظهر قرية عرشت ببيوتها بقرميد أحمر ملتو، ويمتد نزولا نحوها طريق منحدر وعر ضيق كثير المنعرجات والحجارة[1] .

وعلى يسار الطريق وعبر مسلك ضيق يقف بيت عم أحمد على منحدر منعزل عن البيوت، على مدخله أعمدة خشبية تسلقتها أعناب مثقلة بالعناقيد، وفي الطريق إلى جامع القرية آثار مساكن دمرها القصف الجوي الفرنسي خلال ثور ة التحرير، فصار بعضها كتلا من حجارة نبت على أنقاضها التوت، وبعضا الأخر بقيت منها باقية لباب أو جدار، وهناك منازل سليمة مسكونة لم يمسسها سوء [2].

وفي رواية "**النخر**"يسترجع "موهوب" عدة حوادث حينما زار قرية" تمديلت"، كحادثة جنازة دفن والده المرحوم "حمو"، الذي كان قد أوصى بدفنه هناك، لكن تنفيذها لم يكن سهلا بسبب الطريق الموحل في فصل الشتاء، فما عاد يصلح لمرور السيارات والشاحنات ، لقد نقل نعشه على الأكتاف مسافة ثلاثة كيلومتر من "تافوست" إلى "تمدليت" وسط البرد والثلج، كما تعذر على المشيعين الاهتداء إلى مكان يحفر فيه القبر حتى أنهم حفروا له لحدا فوجدوا فيه رفات ميت، و قرروا أن يصنعوا له في الأخير قبرا قرب شجرة بلوط ،حيث أقاموا عليه الصلاة وهم يرتعدون من البرد، فيما الثلج يتساقط عليهم بغزارة ، كانت أسوأ جنازة عرفتها" تمدليت"[3]

ومن الفضاءات الذاكرية سجن "الحراش" وقاعة لقاء المساجين وهناك انتقل "منصور" لزيارة والده السجين المتهم بقتل أمه يقول : " الحجرة غير تلك التي انتظرت فيها أبي المرة الماضية، لكنها

([1]) – ينظر: المصدر السابق ، 176،177.

([2]) – ينظر: المصدر نفسه ،ص 176،177،178.

([3]) – إبراهيم سعدي : النخر(رواية)، مصدر سابق ،ص 133

لا تختلف كثيرا ،فيها بدورها كرسيان وطاولة فارغة "[1] و قاعة المحكمة قاعة مختنقة بفعل الحر والتذمر والحقد يقول "منصور"وقد حضر جلسة محاكمة والده " في تلك القاعة المكتظة عن آخرها بالجمهور الخانقة من شدة القيظ" [2].

و تعد الحانات فضاء تنقل الشخصية، فبعد الحادث الغامض الغريب الذي أدى إلى قتل والد "منصور" لأمه صدم "منصور" بالفاجعة وصار يهرب من الناس ومن نفسه إلى الحانات، فهي التي احتضنته وأنسته بعض همومه على ما بها من قذارة واكتظاظ وبؤس يقول : "الحانات وحدها فتحت لي صدرها ،حانات حقيرة تعيسة قذرة مكتظة على الدوام بالبؤس البشري أقصدها فور خروجي من العمل، وأغادرها وسط الليل عندما تغلق أبوابها" [3].

3- الفضاء الإستشرافي :

ويتعلق بفضاءات ترد للشخصية من غير قصد كعالم الأحلام أو أحلام اليقظة أو الجنون ،أو هي تلك التي تتطلّع الشخصية لها وتتصور أو تفترض وقوع حوادث فيها، ويتم كشف مسبق لحجب الغيب، لتمثل تمهيدا أو إعلاما بحوادث متوقعة سيشهدها الفضاء ،إنها"نبوءة تتصدر المحكي ،وتحدّد بشكل مسبق مصير البطل ،مما يؤدي غالبا لخلق نوع من التشويق يتخذ طابع ترقب أو انتظار (...)في ذهن القارئ"[4].

ففي رواية"**النخر**"يحلم الأب "حمو" في نوبات جنونه بالرحيل عن شقته في العاصمة، ليعيش في بيته الريفي بقريته "تمدليت" ،حلم رومانسي كان يراوده في كل مرة عن صورة بيته القديم الذي يأمل

---

(1) – إبراهيم سعدي : بوح الرجل القادم من الظلام(رواية) ، مصدر سابق ، ص 200.

(2) – المصدر نفسه ، ص 219.

(3)– المصدر نفسه ،ص 211.

(4)– سيزا قاسم :بناء الرواية، دار التنوير ،بيروت،ط1،1985 ، ص 61 .

في إعادة تعميره، فـ" بات يريد إقامته بأربع* طوابق ليعلو جميع البيوت الأخرى، مع وضع هاتف في كل طابق، مع جهاز للتدفئة وآخر للتهوية في كل غرفة،مع حديقة واسعة لا مثيل لها تحيط بالبيت من جميع الجهات، زيادة على مرآب كبير ،وعلى حوض للسباحة ،وعلى مصعد آلي ،وعلى زرابي بديعة ، و على أرائك وثيرة ،وعلى أجهزة تلفزيون ملونة"[1].

و"زليخة" تبتهج بعد مجيء زوجها "فهي أوفر حظا اذ هي على الأقل ستغادر هذا البيت المشؤوم. لحظات أخرى تقضيها هنا، ثم تتركه تركا نهائيا ذاهبة إلى حيث ستجد الراحة والهناء"[2].

وتتوارد "لعلجية" أحلام في كل مرة كأن ترى زوجها عبد القادر الغائب على متن باخرة، لكن السفينة تغرق ويغرق معها ركابها، أوترى نارا تنبثق من كل جهة فتتأجج هنا وهناك وتصيبها بلهيبها فـ"ظلت تحاول إقناع نفسها بان النازلة ستنزل عليها بأن تموت محترقة في يوم من الأيام أو بأن النيران ستأتي على المنزل بأسره،فلا يسلم من قبضتها أحد" [3].

أما" الأم باية" فترى عند احتضارها الجنة، وفيها ينعم أقاربها ومن تعرفه بخيراتها تقول لابنها موهوب :"كنت بينهم ...بين أعزائي الأموات لكنهم أحياء في الجنة...جلست معهم قرب واد ذى ماء عذب رقراق...تحت ظل شجرة وارفة تنوء بمختلف أنواع الفاكهة...تعبق برائحة طيبة...أوراقها ذات ألوان متعددة زاهية ...تحف بنا ملائكة الرحمة بأجنحتها البيضاء..."[4].

ومما تقدم يمكنني أن أذكر النتائج التي توصلت إليها في هذا الفصل وكما يلي :

---

[1] – إبراهيم سعدي ، النخر (رواية)، مصدر سابق ،ص 131. .* والصواب بأربعة طوابق...

[2] – المصدر نفسه ، ص 195

[3]– المصدر نفسه ص، 51.

[4]– المصدر السابق ، ص 295.

• كلما تحركت الشخصية في سياق السرد تحرك معها فضاء يرتبط بها، كما ترتبط به يرتسم المشهد الفضائي بحركتها في الفضاء وبما تقوله عنه فيصير كل موجود في المكان وكل شيء يشغله هو المكان نفسه، وإبراهيم سعدي يختار من معجمه اللغوي بعناية ما يناسب رؤيته الفنية في التصوير والتعمير، فأما التصوير فيهتم بتسليط الضوء على أبعاد الصورة وأطرها وخلفياتها بما في ذلك الأمكنة التي إحتوتها الذاكرة، و أما التعمير فيخضع لتجاذب وتقاطب المدينة و القرية ،الشمال و الجنوب، الماضي و الحاضر .

• إن الفضاء في المتخيل هو فضاء ترسمه اللغة، ومن الملاحظ أن الشخصيات تستقطب أنظارها الأماكن المتنوعة و الأشياء الكثيرة، فتتحدث عنها غير أنها لا تذكرها ذكرا عابرا مجانيا فيؤسس حضورها لفضاءات أخرى استفرد بها الصمت والبياض وهي الأجدر بالحضور.

• تمثل المدينة قيمة أساسية كفضاء مفتوح يرصد كل أشكال الحياة والتواصل الاجتماعي وما أصابه من تغير بفعل التحولات.

• المدينة في الروايات مدينة منطوية على نفسها، و الحياة فيها وفي ضاحيتها آلية تدور في حلقة شبه مفرغة يصير فيها الفضاء وتحركات الشخصية علامات تشع في المتخيل بدلالتها .انطلاق ورجوع، انشغالات تذكر وتستفرد بها جميعا في فضاءات الأحياء والشوارع والأزقة والساحات والمقاهي ، والمنازل و الفنادق والغرف ،فترصد أيضا الروائح والأصوات والأشكال والألوان لتخلق جوهر علاقات الحياة اليومية فيها، ويمكن القول: إن إبراهيم سعدي في عمله قد جعل فضاء المدينة نصا منكتبا وبقراءته يقرأ صورة المكان والإنسان معا .

• هناك شعور ضيق حاد بفضاء المدينة في فضاء الغربة، وشوق لفضاء الوطن خلال الفترة الاستعمارية وما تلاها من سنين، وشعور متذمر من فضاء مدينة الجنوب حيث أرغمت الشخصية على الحلول فيها بسبب الأوضاع التي تهيمن على فضاء الشمال في فضاء وعي جريح بهذا

التناقص قبول مبطن بالرفض. ومع مسار التجربة تشرف الشخصية على أفق الانهيار في ظل فضاء مغلق لا خلاص منه إلا بالسعي في صمت للهروب بالجسد.

• يتدفق الزمن في فضاء المدينة فنجد تغيرات كأنها لم تحدث، فاللامبالاة بهذه التغيرات أساسها أنها لم تؤثر في العلاقات لأنه لم يحدث للنفوس ما تتطلع إليه.

• إن فضاء المدينة ليس ذلك الذي يشيده فضاء الكتابة بل إنه أيضا ما ندركه بالقراءة فنعيد بناءه بتركيب جميع مكوناته، لنعثر على خطاب الحياة في علامة ذلك الفضاء، لذلك فإن المدينة تصبح خطاب المجتمع المستعمل لذلك النسق عندما تمنح للخطاب نفسها تصير ناطقة، وينبغي الإنصات إليها[1].

• تعتمد الفضاءات الأساسية على فضاءات مضمنة لتملأ الفراغ الحكائي، وتسلط الأضواء عليها كبديل يستقطب القراءة العمودية للفضاء لأنها تركز على تقديم صورة الظاهر من خلال الاعتماد على الخفي .

• إن تفحص "طبوغرافيا" المدينة يكشف غياب الأسرة والبيت وضعفهما إن وجدا فتور في التواصل الاجتماعي غياب المجتمع .انحسار القيم الأخلاقية والتربوية في الأسرة والمجتمع، وهيمنة المتسلط وإقصاء الأخر وفرض الرأي بالقوة من أشخاص غير مؤهلين فكريا واجتماعيا.

وبتقديري فإن إبراهيم سعدي بدأ كتابته بوعي شاب مستوعبا الفضاء، فتوهج استقطابه تعالقات فضاء المهجر وآلام القهر والميز العنصري، وفي خضم عجز مطبق عن مجابهته هرب رومانسيا لفضاء القرية حيث أبعد الشخصية عنه قهر الحاجة ،لكنه وأمام ركام الحوادث طور التجربة في

([1])– ينظر: بيار زيما :النقد الاجتماعي نحو علم الاجتماع للنص الأدبي ،ترجمة عايدة لطفي ،مراجعة أمينة رشيد و سيد بحراوي ،دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع القاهرة ط1،1991،ص172،190.

الفكر، والممارسة فأضحى الفضاء في ثلاثية "فتاوى زمن الموت" "بحثا عن أمال الغبريني""المرفوضون" نموذجا للهروب والإحساس بعدوانية الفضاء، ورغم القبول به في بعضها إلا أنه مبطن بالرفض، وهذا للشعور باللاجدوى في ظل التناقض مما أوصل الوعي إلى حافة الانهيار .

*****